الفصل الثاني

يوم القيامة

أولا: يوم القيامة

نفخة وصيحة:

يقول تعالى بشأن يوم القيامة: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان: 26]؛ فهو يوم واحد وليس كهيئة أيامنا وتشرق فيه أرض المحشر بنور ربها.

وجدير بالبيان أن الله تعالى أطلق على نفخة الصور (نفخة القيامة) اسم الصيحة، فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ [ق: 42].

إنه من المعلوم بأن الصيحة إذا كانت عظيمة فإنه يصاحبها هواء شديد، لذلك فيمكن أن تكون نفخة وصيحة بذات الوقت، ويكون ذلك من بديع بيان القرءان، ومن قوة الصيحة فإن الكون سيتبدد إلى فتات من قوة تلك الصيحة، وسيتناثر من قوة النفخة.

فنفخة القيامة يصاحبها صيحة الخروج، وأيا كان الأمر، فالثابت

أن الأمر بالخروج يكون عن طريق صيحة الخروج، وهي صيحة عظيمة، وتبلغ عظمتها أنها تُسمع الموتى الذين لا يسمعون أصلا بنص كتاب الله القائل: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ [فاطر: 22]. لكن الله يُسمع من يشاء.

وصيحة الخروج مناداة من الله لأهل القبور، فيتجيبون له فورا، لقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم: 25].

ومن صور القيامة يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق: 44]؛ ويقول جل شأنه: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان: 25]؛ فستتشقق الأرض عن الأجساد، وستتشقق السماء عن الملائكة، ثم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: 48].

البعث:

وبالنفخة الثانية (نفخة القيامة) يكون البعث للقيامة العامة، حيث يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: 68]؛ والصورة التفصيلية لأحداث البعث تبينها الآيات التالية:

فيقول سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: 51].

ويقول جل شأنه: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: 43].

ويقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: 44].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: 48].

وعن قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: 6-8].

فهذه الآية تنص على خروج الكافرين خاشعي الأبصار أذلاء، مسرعين إلى مصدر الصوت الذي يناديهم ويدعوهم، وتزيدنا بياناً وصورة حية لمشهد البعث والنشور، فحالهم في ذلك اليوم في حركتهم وانطلاقتهم وهم يخرجون مسرعين كحال الجراد المنتشر، ويفيدنا النص أيضاً اعتراف الكفار في ذلك اليوم بصعوبة موقفهم ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

أما أسفار الأنبياء الأخرى في التوراة ففيها بعض النصوص التي تُصرِّح بالبعث والنشور، وكذلك الأناجيل، ففي سفر دانيال: «كثيرون من الراقدين تحت التراب يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار، والازدراء الأبدي».

وفي سفر المزامير يذكر الحشر إلى النَّار فيقول: «مثل الغنم إلى النَّار يساقون، الموت يرعاهم، ويسودهم المستقيمون غداة، وصورتهم تبلى، والهاوية مسكن لهم».

ويكون مع خروج الأجساد من القبور تزويج الأنفس ـ التي سبق وكانت بمكان لا يعلمه إلا الله ـ لأجساد لا أقول بأنها ذات الأجساد القديمة لكنها تحمل ذات مقوماتها وذاكرتها، لكن ستختلف خصائصها، والأنفس لم تكن بما يُطلق عليه البعض البرزخ، فالبرزخ ما هو إلا فاصل بين أحياء الدنيا وحياتهم، والأموات ومكانهم، فعلى ذلك لا يوجد مكان اسمه البرزخ ولا حياة اسمها الحياة البرزخية، فذلك من أنباء الغيب التي استأثر الله بعلمها، لكنها خيالات بعض المفسرين الذين تأثروا بمدسوس الروايات على رسول الله.

لكن قد يثور سؤال أيتم بعثنا بذات أجسادنا أم ستتبدل تلك الأجساد؟، وهل من كان مشلولا بالدنيا سيُبعث مشلولا؟، وصاحب البدانة هل يُبعث بدينا؟..وهكذا؟، بالطبع لا، لأن الجسد ما هو إلا

مركبة، وتلك المركبة لابد وتصلح للمكان الذي تتواجد به، والمهمة الموكولة لها، والجسم ما هو إلا مجرد طاقة، وبالطبع سيتغير كنه هذه الطاقة بالآخرة، فكما تغيرت وتبدلت الأرض والسماوات فإن الجسد أيضا ستتغير خصائصه مع احتفاظه بذات شكله، فصاحب البدانة لن يكون بدينا، لأن بدانته كانت من نهمه لالتهام الطعام بالدنيا.

ولتغير خصائص الجسم فإننا سيمكنا أن نرى الجن والملائكة، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: 22].

ولأننا كنا بالدنيا ذوي بصر محدود لا يرى كل الموجودات، وله قدرات محدودة تتناسب مع مهمته بالحياة الدنيا، وفي ذلك يقول ربنا تبارك وتعالى بسورة الحاقة: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: 38-39]؛ لكن للآخرة شأن آخر وهيئة أخرى ذات إمكانات أكبر، لذلك ستتغير خصائص الجسد، فهو جسد لا يبول ولا يغوط.

يقول ابن تيمية يرحمه الله تعالى: «النشأتان نوعان تحت جنس: يتفقان ويتماثلان ويتشابهان من وجه، ويفترقان ويتنوعان من وجه آخر، ولهذا جعل المعاد هو المبدأ، وجعله مثله أيضاً.

وأول مقولة يقولها الكافرون بعد البعث يحكيها لنا القرءان: ﴿قَالُوا

يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ [يس: 52]؛ فلأنهم كانوا يُكذِّبون بالبعث فأصبح البعث حقيقة واقعة فهم يقولون: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾، بل تجدهم من خرفهم وكفرهم يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا﴾، فهم لا يزالون في ضلالهم غير مصدقين، غير أنهم لا يستطيعون التكذيب الآن كما كانوا بالماضي حال حياتهم، وما ذلك إلا لوقوع البعث الذي يُهَيِّئُهُم للحساب واقعا ملموسا.

ومن بين ما أنبأنا به كتاب الله أن كل نفس تُبعث يكون معها سائق وشهيد من ملائكة الله، فيقول جل جلاله: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ [ق: 21]؛ فالسائق يقودها إلى الميزان ثم إلى المحشر، والشهيد يحمل سجلات أعمالها، وقد يكون المحشر العام أولا ثم الميزان، وهو ما لم أستطع الوقوف عليه تحديدا؛ ثم بعدها يكون تطاير الكتب ثم المحشر الخاص ثم المصير الأبدي.

والسائق والشهيد لهما وظيفة أخرى مع الكافرين، إذ يقول الله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الأنفال: 50]؛ ولأسفي بأن بعض الدعاة والمفسرين إن لم يكن جلُّهُم يقول عن هذه الآية بأنها ساعة الوفاة، وما ذلك إلا لقصور مفهوم كلمة (يتوفى)، فالتوفي هنا يعني التولي، أي حين تتولى الملائكة أمر الذين كفروا فإنهم يضربون وجوههم وأدبارهم،

لكن إذا تصورنا تفسير الدعاة والمفسرين فإننا سنسأل عن دور الملائكة (السائق والشهيد) بالنسبة للصالحين، هل أغفله القرءان؟، لكن لنا أن نقول بأن الفرق في السوق للمحشر هو الإهانة التي يلقاها أهل الكفر، وفي لونهم الأزرق وفي كونهم عميانا وصما وبكما، وهو ما سيأتي بيانه.

الحشر والشفاعة:

ويحشر الناس كلهم في صعيد واحد بأرض المحشر، ويبدو أنه سيكون هناك زحام شديد لما تعنيه كلمة حشر وكلمة محشر، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: 158]؛ ويقول جل في علاه: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 72]؛ ولن يقف أمر الحشر على الناس فقط بل يكون على كل الخلائق، حيث يقول تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 38].

ولا يهمني في هذا الموقف العصيب أن يحشر بعض الناس ركبانا وكأنهم يتم تجهيزهم لعرس، فالخطب جلل، إنه الحساب وهول الحساب، مهما كان العبد طيبا، لكن ما يجب التنويه عنه أن الأنفس الطيبة تكون مطمئنة قبل أن تغادر الحياة، فقد قال الله بسورة الفجر:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر: 27-30]؛ بما يعني أننا لسنا بحاجة لأساطير من نوع أنهم يحشرون ركبانا.

وأرض المحشر مضيئة من ذاتها حيث يقول تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر: 69].

وإنه علاوة على الحشر العام للناس جميعا بأرض واحدة، فإن هناك محشرًا خاصًا لكل فئة، وذلك من قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ [مريم: 68]. فهناك محشر خاص عند جهنم.

بينما سيُحشر المتقون في محشر خاص، حيث يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ [مريم: 85]؛ بينما يقول عن الكافرين: ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: 86]؛ بما يعني بأن هناك حشرًا عامًا ثم حشرًا خاصًا لكل فئة.

كما لابد أن نتبين الفرق بين الحشر وفدا للمتقين، والسوق وردا للكافرين، فالوفود يكون لها شرف في استقبالها، أما الورد فهم يقذفون ويذوقون سوء المعاملة.

ويُحشر المذنبون ـ الذين تمت إدانتهم ـ زُرْقًا، حيث يقول تعالى:

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه: 102]؛ ويا ليت الأمر يقف عند حد اختلاف اللون بلون فاضح، لكن انظر لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: 124]؛ فهم يحشرون عميا.

ومن مصائب بعض الكافرين بالآخرة أنهم لا يحشرون واقفين، بل يحشرون على وجوههم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: 34]؛ فهؤلاء هم أشر الكافرين مصيرا، بل لا تقف المصيبة عند هذا الحد، فتدبر قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: 97]؛ فما أرى من ذل أكبر من هذا، وهو ذل يشهده الخلائق جميعا.

بينما يُحشر المؤمنون ولهم هالة كمال التزامهم بعبودية الحق طاعةً، واستغفارًا، وتوبةً، فترى نورهم أمامهم وعن أيمانهم بينما هم يريدون أن يحيطهم النور من كل جانب، وفي ذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا

وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم: 8]؛ فيُكَفِّر الله عنهم سيئاتهم ويتمم لهم نورهم من كل جانب ثم يدخلهم الجنَّة.

ويقول ـ تعالى ـ أيضا عنهم: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الحديد: 12]؛ فما أرى إلا أن ذلك هو الفوز العظيم وأسأل الله ـ تعالى ـ أن يصلح عملي، ويجمعني مع هالتي من نور الكمال وإياهم مع النبيين بأعلى مراتب الجنَّة.....آمين.

ويجتمع الناس بالمحشر العام فيجلسون، وتتم إقامة الحجة على الناس أجمعين دفعة واحدة، ثم تقام الحجة على كل فرد على حدة، فأما عن البيان الأول فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: 28]؛ فكتاب الأمم هو ما كانت تتبعه الأمم، فيجلس الذين كانوا يتبعون القرءان خلف القرءان، ومن كانوا يتبعون مدسوسات كتب غير رسالات الله فتراهم يجلسون خلف مدسوساتهم، ومن كانوا يرون إمامة علي بن أبي طالب هي منتهى جهادهم يجلسون خلف ما يدعون من كتب يُفَرِّقون بها الأمة، ومن كان جل همه أن يكون ناصريا اشتراكيا فهو يجلس خلف منهاجه الذي ارتضاه وبدَّل به كتاب الله....وهكذا.

وأما عن البيان الثاني (إقامة الحجة على كل فرد على حدة) فهو

أمر جاهز أولا بأول، لأن الله تعالى يقول: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: 80]؛ ورسل الله الكتبة ليست ملائكة معها دفاتر وأوراق كما يتخيل بعض المُجسِّدين، لكنها أجهزة تسجيل عضوية خُلقت فيك منذ خُلقت، كشريحة التسجيل بالأجهزة الألكترونية، فتلك الأجهزة لا يمنعها ماء ولا ظلام عن تسجيل كل شيء بالصوت والصورة حتى ظنونك وخواطرك، حيث يقول تعالى: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: 7]؛ ويقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ..... ﴾ [الحجرات: 12]؛ فلو أن هناك ملكين يكتبان في دفاتر ـ كما يظن الظانين ـ لكان الأمر يعني بأنهما يعلمان ما يجول بخواطرنا من ظنون، وهو الأمر المستحيل على الملائكة.

ولا يبقى بعد ذلك إلا وضع الحسنات في كفة والسيئات بالكفة الأخرى، وإجراء المقاصة بينهما، ليقيم الله الحجة والبرهان على عباده، ثم ينتهي الأمر إلى الجزاء.

ومن عجيب ما ورد بكتب الصحاح أن نقرأ مسند الإمام أحمد وهو يقرر بأن الشام هي أرض المحشر، وكأن الله لم يقل بأنه سيبدل الأرض غير الأرض والسماوات، لكن قل في إعلان الكثير الحرب على القرءان ما تشاء.

الشفاعة:

وحتى لا يقولن قائل بشفاعة في يوم الحشر فإن الله تعالى قال:

1- ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: 51].

2- ويقول تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: 48].

3- ويقول سبحانه: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: 123].

4- ويقول جل في علاه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: 254].

5- ويقول تعالى بسورة النجم: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم: 39-41]؛ بما يعني أنك مجزي بما تفعل فقط.

أما من يحتجون بقوله تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: 255]؛ وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: 28]

بـما يعني وجـود شـفاعة، فقولهم مـردود عليهم بأن تلك الشـفاعة لا تكون يوم القيامة، وإلا بات القرءان متناقضا، إنما هي شـفاعة بالدنيا، فموسـى عليه الصلاة والسلام شـفع لقومه الذين أماتهم الله فأحياهم فقال لـه: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَّ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: 155]؛ ونبينا محمد ﷺ كان وجوده مانعا من عذاب من حوله من الصحابة، حيث يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: 33] ... وهكذا.

ويقول ربنا وهو يثبت الشـفاعة بالدنيـا حال الحياة: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ [النساء: 85]؛ فكيـف سـيكون لمـن يشـفع شـفاعة سـيئة ذنب إن لم يكـن ذلـك بالدنيا، هل هنـاك ذنوب يصيبها العبد يوم القيامة.

فهـل نُكذِّب بتلك الآيات كلهـا، وبغيرها، لنؤكد شـفاعة روائية بيـوم الحـشر، ونرجم القـرءان بالنقـص ونقول بـأن السُّـنة مكملة لما سـكت القرءان، بينما نـردد: ﴿ ... مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: 38]؛ فلمست أدري أنردد الآية ونعتقد نقيضها، أم يرجم بعضنا بعضا بالقصور الفكري حتى يبقى الوضع على ما هو عليه؟.

وحتى ومع أحسن الفروض، وإن أهملنا ـ بالفسق المعتاد ـ كل تلك المعاني الواضحة للآيات، فإن كانت هناك شفاعة، فمن ذا الذي اتخذ عند الله عهدا أن يشفع له أحد؟، ومن أدراك بقبول الله لتلك الشفاعة؟.

والسُّنة النبوية القولية التي وردت بشأن الشفاعة لا تنهض لتقف في وجه الآيات القرءانية، ولا يقولن قائل بأننا لا نفهم، أو بأن عقولنا قاصرة، وينبري بتبريرات قرمزية اعتدنا عليها، لذلك لا تعجب إن رأيت أئمة هؤلاء يقولون بأن الكتاب يحتاج للسنة أكثر من احتياج السُّنة للكتاب، قال بذلك الإمام الأوزاعي، وما أرى قوله إلا شططًا واجتراء على الله وجد من يعظمونه، بل ويقولون عنه بأنه إمام.

فتجد من الأوائل الذين أقدموا على ذلك التجاوز الإمام الشوكاني الذي يقول: [بأن السُّنة النبوية توجب ما سكت القرءان عن إيجابه وتحرم ما سكت القرءان عن تحريمه]، بما يعني أن السُّنة القولية المروية بشريا ولم يحفظها رب العالمين، وحفظها ومحصها البشر الذين بعملهم اختلاف كثير عن الحق، فإن الشوكاني يرى بأنها بمثل قوة القرءان في الحكم بل تتفوق عليه.

وقال بعضهم تعبير فيه شذوذ فقال: [بأن السُّنة النبوية قاضية على القرءان]، وبررها البعض تبريرات ساذجة ليخفف من وطأتها، لكن الإمام أحمد بن حنبل قال: أستحي من الله أن أقول هذا.

وبهذا ومن جماع ما سبق قلنا بعدم وجود شفاعة يوم الحشر، وإن فرح الكمالى بمنظومة الشفاعة، وبزعم دخول الجنَّة برحمة الله وليس بالعمل الصالح، فما قالوا ذلك إلا ليوطنوا بالنفوس فتنة إشراك رسول الله مع الله في الحكم والتحليل والتحريم، ليقيلوا بذلك عثراتهم ومعاصيهم التي قضوا فيها حياتهم كلها ثم تراهم يعتقدون ويتلمسون الدفن بالبقيع كسبب للوصول إلى الجنَّة وما ذلك إلا من فساد عقائد هؤلاء.

صور كونية من أحداث يوم القيامة:

سبق الذكر بأن يوم القيامة يوم تشييد للآخرة، فمن بين ما سيحدث يوم القيامة أن تنشق السماء ويتغير لونها، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ [الرحمن: 37].

ومنها أنك ترى الله والملائكة، وتكون الملائكة صفا صفا، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: 22].

ومن أحداثها قوله تعالى: ﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ

﴿ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الفجر: 23]؛ ويقول سبحانه: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق: 31]؛ يعني ذلك عدم وجود الجنَّة والنَّار الآن في مكانهما وإن كانتا خُلقتا فعلا وتم إعدادهما، لكنهما سيؤتى بهما يوم القيامة.

والنَّار لها تغيظ وزفير ـ أعوذ بالله منها ومن تغيظها وزفيرها ـ وهو صوت يشبه الزمجرة، وهي ترى أهلها قبل أن يروها، وهم يسمعونها قبل أن يروها، وذلك من قوله تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [الفرقان: 12].

ويقول تعالى في شأن الجنَّة: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: 133].

الميزان ثم تسلم الكتب:

وبعد الحشر العام والحُجَّة العامة، يتم سوق الناس للميزان، حيث يرى كل منهم عمله الشخصي، الخير والشر، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: 47]؛ ويقول جل شأنه بصدد رؤية الأعمال: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ

ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: 30]؛ لكن هيهات، فلقد أخبرنا تعالى بسورة الزلزلة وهي تتحدث عن أحداث الساعة أنه يحدث العلم بعدها، أي يوم القيامة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: 7-8]؛ فرؤية الأعمال تكون يوم القيامة العامة، ولا تكون يوم موتك كما يحلو للبعض أن يتشدق بذلك القول المناهض لكتاب الله، والناس تتبعهم دون تدبر لكتاب الله.

ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير: 1-14] أي إذا حدثت كل هذه الأحداث الخاصة بالساعة والقيامة، فإنه يحدث بعدها اليقين بحقيقة علم كل نفس بما قدمت وأخرت.

ويؤكد ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار: 1-5]؛ أي إذا حدث كل هذا يحدث علم كل نفس بما قدمت وأخرت (ولاحظ أنه ذكر تدمير الكون بما يعني الساعة، وذكر بعثرة القبور بما يعني القيامة).

هـل تدبرت كيـف أن معرفـة الأعمال تكـون بعد أهوال السـاعة وبعد البعث يوم القيامة، لسـت أدري ماذا أفاد هؤلاء المخالفين الذين يقولـون بـأن العلـم بالأعمال يكـون يوم المـمات، ثم تراهم يسـاندون فكرهم بحديث [إذا مات ابن آدم قامت قيامته]، وهو حديث موضوع كـما ورد بذلك الخبر بسلسـلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني شيخ محدثي العصر الحديث، لكن يمكن القول بأن مدة وجودك بالقبر تساوي صفرا لانعدام الزمن في عالم الأموات، فيكون بعد الموت بعثك أنت والناس جميعا يوم القيامة دون أن تحس بأن هناك زمنا مر عليك.

فـإن كان العبد مؤمنـا صالحا ـ وليس مؤمنا بالبطاقة الشـخصية ـ فـإن ميزانه ثقيـل، وفي ذلك يقول سـبحانه: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعـراف: 8]؛ أمـا إن كان مـن الكافريـن فإن ميزانـه يطيش لخفتـه، وفي ذلـك يقول ربنـا تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 9].

وقـد أخـرج أبـو داود والترمـذي، وصححـه ابن حبـان عن أبي الـدرداء عن النبـي ـ ﷺ ـ قال: «ما يوضع في الميزان يـوم القيامة أثقل من حسن الخلق».

ثـم تكـون المقاصة الحسـابية بـين أجر عملـك الصالـح وعملك

الفاسد، ونتيجة تلك المقاصة هي مصيرك الأبدي الذي لا فكاك منه، فالحسنات تُذهب السيئات، والسيئات تأكل الحسنات، ثم يطبع لك كتابك الذي يأتيك ولا تأتيه، حيث يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: 19-24].

وأما من أُتي كتابه بشماله فيقول الله عنهم: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: 25-37].

وهناك من يأتيهم كتابهم من خلفهم، حيث يقول ـ تعالى ـ بسورة الانشقاق: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: 10-15]؛ والحقيقة لست أدري أهي ثلاث صور لوصول الكتاب لابن آدم أم صورتان، لأن سورة الحاقة أبرزت صورتين، الأولى أن يأتي الكتاب عن يمين والثانية عن شمال العبد،

أما سورة الانشقاق فذكرت صورتين أيضا، الأولى عن يمين، والثانية من الخلف، وذلك هو سبب عدم الجزم عما إذا كانت صورا ثلاثا أم صورتين، لكن أيا كان الأمر فإن من السوية الفكرية أن نعمل لنكون مع الفئة الناجية.

هول الحساب ومجادلة الناس والشهود على العبد:

لكن الأمر لا يمر بهذه البساطة، فالموقف موقف مصير أبدي لذلك ترى أُناسًا يجادلون الله عن أنفسهم وفي ذلك يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: 111]؛ وحتى لا يكون الأمر جدالا في عبث فإن الله يقيم الحجة على أولئك المجادلين، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: 65]؛ ويقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: 24]؛ فحذار من كونك تحمل شهود الإثبات عليك بين جنبيك وأنت لا تدري، أو قد تدري، لكنك لا تنتبه، وتلك من الطامات الكبرى، لذلك فذكر الله الدائم بالعمل على رضوانه أعظم ما يمكن للمرء أن يهتم به في حياته لحسن أُخراه.

وحتى حين يُقاد أهل النَّار إلى جهنم تراهم ما زالوا يجادلون،

وهنا.... وعند النَّار، يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم، ولأن العذاب سيكون على الجلد أول ما يكون، فإن الله يجعل ذلك الجلد ينطق وكأنما ينتقم من صاحبه، حيث يقول تعالى بسورة فصلت: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت: 19-24].

كما يبين لنا كتاب ربنا تسجيل الأرض لكل ما وقع على ظهرها، فيقول تعالى بسورة الزلزلة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: 1-5]؛ فتعبير ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ يعني كما ورد بالسُّنة النبوية المطهرة أن تحدث بما عمل كل عبد وأمة على ظهرها، وتدبر قول رسول الله ﷺ بمسند أبي يعلي حديث رقم [4133] عن النبي ﷺ أنه قال ما من عبد إلا وله في السماء بابان باب يدخل عمله وباب يخرج فيه عمله وكلامه فإذا مات فقداه وبكيا عليه

وتلا هذه الآية: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الدخان: 29]، فذكر أنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملا صالحا تبكي عليهم ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكي عليهم.

إن التسجيل العضوي الدائم لكل ما تفعلونه، والتسجيل الأرضي لكل ما تقوم به على ظهرها، من كُبرى الحقائق التي نتناساها أو ننساها، وقد يكون سبب نسياننا يكمن في تأثرنا بما يعني أن الجماد أو الأعضاء الجسدية ليس لها إدراك أو إرادة مستقلة، لكن تبيان عملاقية تأثيرها على مصائر العباد يشهدها يوم القيامة حقيقة قائمة ومفزعة، يرتد أثرها إلى حياتك التي تحياها لعلك تفيق من سكرات وساوس الشياطين وطول الأمل وتتقي الله.

لذلك وبعد كل تلك الشهود، فإن أهل النَّار بعد أن ألجمتهم الحجة تراهم لا ينطقون، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 34-37]؛ أي في ذات اليوم الذي سمح الله لهم فيه بأن يجادلوا ويدافعوا عن أنفسهم، وبعد إقامة الحجة والبيان عليهم فهم لا ينطقون ولا يؤذن لهم أن يعتذروا، وهذا لإذلالهم.

شهداء يوم القيامة:

ومن بين أحداث يوم القيامة وجود شهداء كثيرين إذ لا يقتصر الأمر على أن كل نفس تبعث يكون معها سائق وشهيد، بل يكون الرسول شهيدا علينا، ونكون نحن شهداء على الناس، وذلك من قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: 143].

وهناك على كل أمة شهيد منها، ويكون الرسول شهيدًا على شهداء الأمم، فيقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: 89]؛ ويقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [النحل: 84]. حيث سيكون كل نبي شهيد على قومه، ويكون النبي شهيد على شهداء الأمم، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: 41].

فعيسى - عليه السلام - يكون شهيدًا على أمة النصارى، وذلك من قوله

تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: 159]، وهكذا كل نبي.

والله ـ تعالى ـ على كل شيء شهيد، وهو شهيد على كل الأمم، وعلى كل إنسان على حدة، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [البروج: 9]؛ ويقول تعالى: ﴿ ... كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الأحقاف: 8].

تبرؤ المذنبين والشياطين من بعضهم البعض:

وينقل لنا القرءان صورة تبرؤ كل من يتبع غير سبيل المؤمنين، فيرينا صورة الذين كان الناس تتبعهم بالدنيا، وكانوا يشمخون بكثرة الأتباع، حيث يقول تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة: 166]؛ وهنا يكون ندم الأتباع ـ لكن حيث لا ينفع الندم ـ فيقولون: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: 167]؛ وهكذا ما تحوي الآخرة إلا ندم لمن لم ينتبهوا، وغرتهم الحياة الدنيا.

ويقول الله عن أولئك الأصحاب والأخلاء: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: 67]؛ ويقول بسورة

الفرقان عن من أطاع أصحابه وندماءه: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: 27-29].

وحتى يكون ندم فئة الكافرين وأولئك الذين أفسدوا إيمانهم أشد، والخيبة والخسارة فادحة، فإن الله قد جعل لإبليس خطبة، وكأنها خطبة الوداع لأصحابه الذين كانوا يتبعون وساوسه وتعاليمه بالدنيا، فيقول الله ـ تعالى ـ في هذا المشهد: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: 22].

ثم يُقاد المؤمنون إيمانا ذا يقين إلى الجنَّة، بينما يُساق المجرمون إلى النَّار، وفي ذلك يقول ـ تعالى ـ بسورة مريم: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: 85-86]؛ ويقول تعالى بسورة الزمر: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ

كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الزمر: 71-75].

وكلمة (زُمَرا) تعني بأن الناس والجان يدخلون الجنَّة أو النَّار وفق أعمالهم، فالزُّمرة هي مجموعة متجانسة من الجنَّة أو الناس، فيدخل إلى الجنَّة الصادقون في زُمرة الصادقين، والبارون في زُمرة البارين، وهكذا، ويدخل الكاذبون في زمرة الكاذبين...و...، إلى النَّار، وهكذا، وكل تلك الفئات تدخل وفق المقاصة التي ذكرناها من حسنات أو سيئات، ويتم تقسيمها الفئوي وفق معظم أعمالها الحسنة، أو أعمالها السيئة.

الوصول إلى دار القرار:

دار القرار بالنسبة لأهل المحشر إما جنة أو نار، حيث يقول تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ [غافر: 39]؛ فيقاد أهل النَّار إلى النَّار في مجموعات، كل مجموعة أسوأ

من أختها، وبمجرد وصولهم تفتح النَّار أبوابها أوتوماتيكيا، وذلك من قوله ـ تعالى ـ بسورة الزمر: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: 71-72]؛ ويقول تعالى أيضا: ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: 29].

ويدخل أهل النَّار للنار، وقد أعياهم الجدل والدفاع عن أنفسهم، فهم يدخلونها معترفين بذنوبهم، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: 71].

ويقول تعالى بسورة الملك عن وصف دخول أهل النَّار إليها ووصفها واعتراف أهلها وندمهم: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ

أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: 6-11].

أما أهل الجنَّة ـ اللهم اجعلني في مقدمتهم مع حبيبك وصفيك محمد ومن اهتدى بهديه ـ فيقادون إليها في مجموعات، كل مجموعة أفضل من أختها، وبمجرد وصولهم الجنَّة فإن هناك ملائكة تفتح أبوابها لهم: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الزمر: 73-75].

ويقول تعالى بسورة (ق) بشأن دخول أهل الجنَّة للجنة: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: 31-35].

وأبواب جهنم سبعة، وذلك من قوله تعالى بسورة الحجر: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر: 43-44].

وأبواب الجنَّة ثمانية كما ورد بالحديث الذي رواه البخاري في صحيحه بكتاب بدء الخلق حديث رقم 3084 عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: (في الجنَّة ثمانية أبواب، فيها باب يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون).

وخزنة النَّار ملائكة غلاظ شداد، وعليهم رئيس لهم، اسمه مالك، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم: 6]؛ وعدد خزنة النار تسعة عشر ملكا، حيث يقول ـ تعالى ـ بسورة المدثر: ﴿ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ٢٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ٢٩ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر: 26-30]؛ وعن اسم رئيسهم يقول تعالى: ﴿ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف: 77].

ويجدر البيان عن خطأ يقع فيه الكثير عن قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴾ [مريم: 71-72]؛ ففي ((الصحيح)) أنه ـ ﷺ ـ قال: «والذي نفسي بيده، لا يلج النَّار أحد بايع تحت الشجرة»، قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا). فقال: « ألم تسمعيه قال: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا

جِثِيًّا ﴾ [مريم: 72]. وأشار ـ ﷺ ـ إلى أن ورود النَّار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه، ولم يتمكنوا منه يقال: نجاه الله منهم.

من كلمات وأقوال أهل الجنَّة وأهل النَّار وأهل ما بينهما:

وحتى بعد دخول أهل الجنَّة الجنَّة وأهل النَّار النَّار، فإن الله ينقل لنا صورا مما سيحدث فيهما وما يحدث بينهما، فيقول ـ تعالى ـ عن مقولة أهل الجنَّة: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [الزمر: 74]؛ ويقول عنهم أيضا: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر: 33-35].

أما أهل النَّار فمصيرهم وصراخهم يقول الله عنهما بسورة فاطر: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: 36-37].

وتجد أهل النَّار الذين كانوا يُحبون الدنيا وهم يتمنون الموت ويطلبونه، فيقول تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: 77]؛ وفي طلبهم الموت وفي عدم استجابة الله لهذا المطلب ولا التخفيف من العذاب دلالة على عدم وجود عذاب بالقبور، وأن الموت كان مجرد رُقاد في سُبات.

ومن بين الكلام المتبادل بين أهل الجنَّة وأهل النَّار يقول تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 44].

فسبحان الله بعد أن كان الكافرون والمنافقون يضحكون ويتغامزون في الدنيا على المؤمنين انقلب الحال بالآخرة، لذلك يقول ـ تعالى ـ عن الآخرة بأنها خافضة رافعة، أي تخفض أقواما كانوا بالدنيا مرفوعين، وتُعلي شأن أقوام كانوا بميزان الدنيا من الأسفلين، ولعل ذلك من أسباب وعظ الله لنا ألا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم.

ومن الكلام المتبادل بين أهل النَّار وأهل الجنَّة، يقول تعالى بسورة الأعراف: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾

﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [الأعراف: 50-51].

وهناك تخاصم بين أهل النَّار، فهؤلاء الذين كان بعضهم يرحب ببعض في الحياة الدنيا، ويوقِّر بعضهم بعضاً، يتحول حالهم في ذلك اليوم، فيقول بعضهم لبعض ما قصه علينا كتاب ربنا بسورة ص: ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴾ [ص: 59-61]؛ فيتمنى كل فريق على الله أن يزيد من كانوا أحبابه في الدنيا من العذاب والآلام، إن هذا التخاصم بين أهل النَّار حق كائن لا شك في ذلك، كذلك يقول ربنا تبارك وتعالى.

وهناك تخاصم آخر بين أهل النَّار وقرنائهم، قال تعالى بسورة ق: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: 23-29].

وهناك تخاصم ثالث بين أمم أهل النَّار، لأن الذين اتبعوا ما ألفوا عليه آباءهم سيندمون، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ

خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 38].

ولقد بيَّن الحق تبارك وتعالى سبب دخول النَّار وذلك من خلال اعتراف أهلها فيما بينه تعالى بسورة المدثر: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾ [المدثر: 42-47].

وبين أهل الجنَّة وأهل النَّار هناك أناس على الأعراف لم يدخلوا الجنَّة ولا النَّار، لكن تراهم يشاهدون الفئتين، وهم من يسمونهم برجال الأعراف، وهم ليسوا ذكورا فقط كما يتبادر إلى ذهن الناس الذين تأثروا بالفقه والتفسيرات القديمة، بل هم ذكور وإناث، فكلمة رجال تطلق أحيانا لكل ما يقوم على رجلين، فحين يقول الله بسورة النور: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور: 36-38].

فلا يعني بكلمة [رجال] الذكور فقط، بل يعني كل ما قام على رجلين، لذلك فإن الذين انتهى علمهم بأن كلمة رجال تعني الذكور

حرموا ذهاب المرأة للمسجد، ومنهم من كره ذهابها للمسجد، وكل ذلك من مغبة تأويلهم كلمة [رجال] والتزامهم وحصرهم لها بأنها لا تعني عندهم إلا الذكورة، فتأثر تفسير القرءان وكره للمرأة الصلاة بالمسجد.

وعودة إلى رجال الأعراف الذين ذكرهم الله بالسورة التي سُميت باسمهم، فيقول الله فيهم: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف: 46-49]؛ وهكذا تجد رحمة الله تدرك أهل الأعراف الذين تساوت حسناتهم مع سيئاتهم، فيدخلون الجنَّة برحمة الله.

ومن البيان أن أهل الأعراف لا ينظرون إلى أهل النَّار بإرادتهم بل تُصرف أبصارهم إلى أهل النَّار رغما عنهم، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، وقال صاحب المنار: وقد أفاد هذا التعبير بالفعل المبني للمجهول أنهم يوجهون أبصارهم إلى أصحاب الجنَّة بالقصد والرغبة، ويلقون إليهم السلام، وأنهم يكرهون

رؤيـة أصحاب النَّـار، فإذا صُرفـت أبصارهم تلقاءهـم من غير قصد ولا رغبة، فإنهم يقولون ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وجديـر بالذكر بـأن الأعراف التي بـين الجنَّة والنَّـار فاصل يمنع رؤيـة العذاب، ويمنع صرخـات المعذبين عن أهل الجنَّة، لكنه لا يمنع المناداة بينهما.

وترى الملائكة حول الجنَّـة والنَّار وهم ناطقون: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: 75].

وبمجـرد الدخول يكون الخلود بالجنَّـة أو النَّار، لكن يحلو لبعض المُجَسِّـدين، أن يستعين بأقوال أسـلافه ممن يحملون ذات الصفة (حُب التَّجْسيد)، ويظنون قولهم (حديثا صحيحا)، فيقولون بالحديث الذي رواه مسلم برقم: [2849] كما رواه البخاري أيضا: عن أبي سعيد قال: قـال: رسـول الله ﷺ:[يُجاء بالموت يـوم القيامة كأنه كبـش أملح (زاد أبـو كريـب فيوقف بين الجنَّة والنَّـار) واتفقا في باقـي الحديث فيقال يا أهـل الجنَّة هـل تعرفون هـذا فيشرئبـون وينظرون ويقولـون نعم هذا الموت قال ويقال يا أهل النَّار هل تعرفون هذا قال فيشرئبون وينظرون ويقولـون نعم هذا الموت قال فيؤمر به فيذبح قال ثم يقال يا أهل الجنَّة خلود فلا موت ويا أهل النَّار خلود فلا موت قال ثم قرأ رسـول الله :

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: 37] وأشار بيده إلى الدنيا].

فهل يُعقل مثل هذا الهراء أن يُنسب لخاتم الأنبياء والمرسلين، إنه يكفيك أن تشهد بأن الآية القرءانية التي يزعمون بأن النبي استشهد بها في الحديث لا تمت لموضوع الخلود بالجنَّة أو النَّار بصلة، فبينما تتكلم الرواية عن الناس وقد دخلوا الجنَّة والنَّار، والموت وقد ذُبح بينهم، فإن الآية تتكلم عن أحياء يتم إنذارهم بيوم القيامة لعدم إيمانهم في الدنيا، وإنه وإن كان لابد الاستشهاد بآية فكان يمكن الاستشهاد بالآية: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: 68]؛ أو قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: 76]؛ لكن قل في التزوير على رسول الله ما تشاء.

وهل لدى أهل النَّار فرصة لأن يشربوا وينظروا، وهل أهل الجنَّة يتشككون بأنهم خالدين فيها، هل لابد من ذبح الموت؟!، وبهذا المنوال لماذا لا نحضر الضمير ونزرعه، ونمسك بالوساوس فنحرقها، يا ناس كفاكم تدميرا للعقل البشري باسم حديث صحيح.

وهل يخاف الكافرون من ذبح الموت بعد دخولهم النَّار يوم القيامة، ولا يخافون من الموت نفسه الذي سيدخلون في مُعتركه حقا وحقيقة في

الدنيا؟، وماذا يهمهم إن ذُبح الموت أم لم يُذبح، هل بقاء الموت على قيد الحياة هو الذي يهبنا الحياة؟، أم يهبها خالق الأكوان الذي إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، وبلا أسباب أو مسببات، فإن قال الله للنبي (اقرأ) فإنه يقرأ بحول الله وأمره دون ما حاجة لأن يدخل المدرسة ويتعلم القراءة، وإذا أراد أن يحيي من أماته مائة عام فإنه يحييه دون ما حاجة لغياب الموت عن الساحة حتى يعيد إحياءه.

إن مثل تلك الروايات التي يتشيع لها بعض ممن يتصورون بأنهم دعاة للسُّنة النبوية تُكرس للجهل وتُبعد الناس عن كتاب الله وتفسد بها العقيدة، وتنزوي بها الحقائق القرءانية في أفكار الناس من فعل المخلوط السحري الذي لا نعلم حقيقة صحته، والذي يسمونه (حديثا صحيحا) بلا تمحيص.

وما أرى تلك التصورات والروايات إلا من السيناريوهات المسرحية الدرامية، لأن أولئك الدعاة الذين يتشدقون بمثل تلك التُّرهات التراثية لم يمس شغاف قلوبهم اليقين الإيماني بما يقرءون من كتاب الله، ألا يكفي هؤلاء قول الله عن الجنَّة والنَّار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وقوله تعالى ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وقوله ـ تعالى ـ عن أهل النَّار: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: 37]؛ وقوله تعالى عن أهل الجنَّة: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ

وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾[التوبة: 21]؛ فهل تحتاج كلمة (مقيم) لتجيد وذبح للموت حتى نؤمن بخلود المصير بالآخرة.

هل لابد من تجميد الأمر وذبح الموت، حتى نصل لذلك اليقين المادي المجسَّد؟!، فأين الإيمان بالغيب؟، ألا يؤمن هؤلاء بما فعل الله بأصحاب الفيل، هل لابد أن يريهم الله الفيل أو أصحاب الفيل وما حل بهم؟، أرى بأنه لابد من مراجعة موقف كل مسلم من إيمانه وحقيقة يقينه بآيات ربه.

لقد رأيت أم أحفادي وزوجة ولدي وهي تقتني كتابا لأحد مشاهير الدُّعاة يقع في (701) سبعمائة وصفحة واحدة من القطع الكبير، يتكلم عن أحداث النهاية وما رأيت فيه إلا فقرا مدقعا في العلم بالقرءان، وأرى أن الاعتماد على الحديث النبوي لغرس عقائد الغيبيات لدى أهل الإسلام نوع من الزوغ عن الحق، وتصوروا سبعمائة وصفحة واحدة عن أحداث النهاية بينما القرءان بأكمله لم تصل صفحاته لهذا العدد أبدا.

طبيعة وشكل الحياة بالجنَّة والنَّار:

1- أهل الجنَّة:

لعل القارئ حين يقرأ هذا العنوان فإنه لأول وهلة يقول في نفسه وما أدرانا بطبيعة وشكل الحياة داخل الجنَّة والنَّار، لكن القرءان لم

يـترك شـاردة ولا واردة إلا أحصاها، ومع هذا تجـد هواة هجر القران يتركـون آياته إلى ما تنشرح له نفوسـهم من المرويـات البشرية، بينما لا تطرب نفوسهم لذكر القرءان.

فعن الجنَّـة يقول تعـالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: 15].

وعـن أهـل الجنَّـة يقـول تعـالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقـرة: 25]؛ وبسـورة الكهف قـال بأن الأنهار تجـري من تحتهم وليس من تحتهـا: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: 31].

ويطـوف عليهـم ولـدان مخلـدون مـن الملائكـة، ولعـل البعـض يندهـش من كلمة ولدان لكن إن علمت أن النظر للصغار من الأولاد كان يـشرح صـدرك في الدنيـا فـإن الله يخاطبـك بما ينـشرح له صدرك

ويعيه عقلك، لكنهم ليسوا كأولاد الدنيا بل هم كاللآلئ، فقال تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ [الإنسان: 19].

وقال بسورة الواقعة شارحا موقف فئات أهل الجنَّة، ومحددا بأنهم صنفان فقط حيث يقول تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: 10-40].

ويقول ـ تعالى ـ واصفا مساكن أهل الجنَّة من المتقين: ﴿ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ [الزمر: 20]؛ ويقول ـ سبحانه ـ واصفا مساكن المؤمنين: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً

فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [الصف: 12]؛ ويقول ـ تعالى ـ واصفا مسكن الحبيب المصطفى ﷺ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ﴾ [الفرقان: 10].

ومن أحوال أهل الجنَّة أن يُذهب الله الحزن والغل والتعب من نفوسهم بينما هم يضحكون من الكافرين ومصيرهم، فيقول تعالى بسورة المطففين: ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المطففين: 22-36].

ويقول تعالى بسورة الدخان: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٥٤﴾ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [الدخان: 51-57].

ومن بين نعيم الجنة اعتدال جوها فلا هو بالحر ولا بالبرد، حيث يقول تعالى بسورة الإنسان: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإنسان: 12-22].

ومن بين مقامات أهل الجنَّة أن يزوجهم الله بالأبكار، وهو أمر للرجال والنساء، فالتزويج هنا لا يعني الشهوة الحيوانية التي كانت في الدنيا للجنس الآخر، إنما التزويج هنا لمتعة أعلى، وهي تكون للرجال والنساء على السواء.

أما قوله ـ تعالى ـ بأن التزويج يكون من حور عين أبكار، فلا يعني أنثوية الحور العين، ولا يعني غشاء البكارة، فذلكم من الميراث السفلي للكلمات، إنما ونحن بالجنَّة يكون معنى البكورة أنك (ذكرا كنت أو أنثى) ستكون أول من يمس هذه الحور العين، ولأنها من شئون الآخرة فلك أن تتخيلها كما نتخيل قرونا للشيطان بالدنيا، أو نتخيل

بـأن هناك عروسـا للبحـر نصفها آدمـي ونصفها سـمكة بزعنفة ذيل، فلماذا نتخيل الحور العين بأنهن نسـاء؟، هل تكفـي كلمة بكور وكلمة زواج لتبرز النرجسية الذكورية المتوفرة فينا لتفسير كتاب الله على نحو مـا نـرى؟، وهل يفضل الله الذكـور بالجنة على الإناث؟، لا شـك بأن ميراث التوجه في هذا الشأن ليس بسديد.

ويقول رسول الله ـ ﷺ ـ فيما رواه البخاري بالحديث رقم: [6851] حدثنا محمد بن سـنان حدثنا هلال بن علي عن عطاء بن يسـار عن أبي هريرة أن رسـول الله ـ ﷺ ـ قال: [كل أمتي يدخلون الجنَّة إلا من أبى قالوا يا رسـول الله ومن يأبى قال من أطاعني دخل الجنَّة ومن عصاني فقد أبى].

والجنَّـة ميراث لحياة الصلاح التي قضاها المسـلم في حياته الدنيا، وهي مُـعَدَّة سـلفًا لاسـتقبال المؤمنين بدعوة الرسـل، وفي ذلك يقول تعـالى: ﴿.... وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعـراف: 43]؛ وعـن سـبق إعـداد الجنَّة يقول تعـالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: 21].

2- أهـل النَّار:

أمـا أهـل النَّـار ـ نعوذ بالله منهـم ومن مصيرهـم ـ فعـلاوة على ما عاينوه من سوء الحساب فإن مصيرهم أسود، حيث يقول تعالى بسورة الحج عن ثيابهم ومصيرهـم: ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الحج: 19-22].

ويقـول أيضا عن ثيابهـم: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [إبراهيم: 50].

ويقول تعالى بسورة المرسلات: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: 28-37].

ويقول تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: 29].

فتصور سرادقًا من نار والناس تستغيث فيه فيغاثون بماء صديد كالمهل يشوي الوجوه، ويقطع الأمعاء مع طعام الزَّقوم.

ويقول تعالى في شان شراب أهل النَّار: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: 16]، ويقول تعالى عن طعامهم: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: 43-50].

وهناك صنف آخر لهم طعام غير الزَّقوم، حيث تجد من يأكلون طعام من الضريع، فيقول تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: 6-7].

ويقول تعالى بسورة الواقعة عن أصحاب الشمال ونوع أكلهم وشربهم: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة: 51-55].

ويقول تعالى بسورة النبأ عن شكل الشراب بجهنم ودرجة حرارته: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً

وِفَاقًا ﴾ [النبأ: 24-26]؛ ولاحظ تعبير ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ إن ذلك يعني أن الجزاء وفق العمل بقانون سبق أن سنه الله لعباده وأعلمهم به.

ويقول ربنا بسورة الأحزاب واصفا حال أهلها وندمهم: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: 66-68].

وتجد الذين كانوا يبخلون عن بذل المال في سبيل الله، فلم يخرجوا زكاة أموالهم حيث يقول تعالى عنهم: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران: 180].

ويقول تعالى بشأن بعض الأحبار والرهبان والبخلاء الذين سيعذبهم الله بالنار: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: 34-35].

والنَّار معدَّة سلفا لأهل الكفر جزاء ما قدمت أيديهم بحياتهم

الدنيـــا، حيـث يقـول تعـالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: 131].

ولننتبه لقول رسـول السـماحة والمحبة محمد بن عبـد الله فيما رواه أبـو داوود بالحديـث رقم: 881 ـ عن عبد الرحمـن بن أبي ليلى، عن أبيه قال: صليـت إلى جنب رسـول اللهّ ﷺ في صلاة تطوعٍ فسـمعته يقول: «أعوذ باللهّ من النَّار، ويلٌ لأهل النَّار».

لكن مـن بلايا الاعتماد عـلى الحديث، حتى بعض الذي يسـمونه صحيحا، والذي يتصادم بالمباشرة مع نصوص آيات كتاب الله، قولهم بـأن النَّار لا تكتفي إلا إذا وضع الرب قدمه فيها، فإن ذلك الدس على رسـول الله يتصادم مع قوله تعـالى: ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ [السـجدة: 13]؛ فهل نتغاضى عن معاني القـرءان الذي يقرر بأن النَّار تمتلئ بالجِنَّة والنَّاس، أم نرتوي بالحديث الذي يقول بأنها لا تكتفي إلا بقدم الله، تعالى لله عن ذلك علوا كبيرا وعظيما.

وإليك الحديث الذي ورد بصحيح أحمد ومسـلم: [لا تزال جهنم تقول هل من مزيد فيقول رب العالمين فيضع قدمه فيها فينزوي بعضها إلى بعض وتقول بعزتك قط قط ولا يزال في الجنَّة فضلا حتى ينشئ الله خلقا آخر فيسكنه في فضول الجنَّة].

نعم إن الله يقول: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: 30]؛ لكن ليس معنى ذلك أنها لا تمتلئ إلا بقدم الله، فملؤها يكون بالجنَّة والنّاس كما ورد البيان.

ثانيا: درجات الرأفة بالآخرة وطريقة الحساب وهل دخول الجنَّة بالرحمة؟

قد يكون من المناسب أن أذكر بأنه مع هول الحساب ومواقفه بالآخرة، إلا أنه يجب تقسيم الناس إلى أقسام بالنسبة لحسابهم أمام رب الأرباب، فالكافر لا يؤخذ منه صرف ولا عدل، فكما كان لا يعترف بالله في دنياه فإن الله لن يعترف له بحسناته يوم القيامة، لذلك يقول تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: 23]؛ والله يعُدُّ الكافرين لمصير السوء يوم القيامة فيقول بسورة مريم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: 83-84]؛ فمهما عمل الكافر من عمل فإن الله لا يعتد بحسناته ويدخله النَّار.

والقسم الثاني هم المشركون، وهؤلاء الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، فبعضهم كان يشرك عن عمد، لذلك تراه إن انتبه لا يأبه، وإن حذرته لا يرتدع، لذلك فهذا الصنف يلحق بأهل الكفر، وفي ذلك

يقول تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ [البينة: 1]؛ ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة: 6].

ويلحق المنافقون بهذا الصنف من المشركين، فتجد القرءان وقد قَرَنَهُم في مواطن كثيرة فقال: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: 73]؛ ويقول تبارك وتعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح: 6].

وهناك قسم من الناس كانوا يشركون بلا عمد منهم، فكانوا لا يشركون شرك عقيدة، لكن يشركون ضمنيا من خلال أعمال وأقوال لا يتبهون لها، وهؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: 106]؛ وهؤلاء إن وعظتهم وعظوا، وإن نهيتهم انتهوا، لذلك فإن مصيرهم الحساب اليسير ثم مغفرة من الله، ويقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: 17].

وهناك الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم (شرك)، فأولئك يُكَفِّر الله عنهم سيئاتهم، ويقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: 33-35].

والذين يجتنبون كبائر الإثم لهم نص خاص بكتاب الله: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: 31]؛ وليس كما يقول البعض بأن الله يعذبنا على السوء سوءا والإحسان إحسانا، وكأن كل فعل منفصل عن الآخر في عقوبته وجزائه، فذلك شعار من لم يفقهوا كتاب الله القائل: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: 114].

فهل من ذكرى الذاكرين ألا نفهم أن كثرة الحسنات تمحو السيئات، ونقول للناس بأن الله يحاسب على السوء سوءا وعلى الإحسان إحسانا لنخيف الناس!؟، ولست أدري أين هؤلاء الدعاة من قول رسول الله: [اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن].

كما أن الاستغفار والتوبة من أهم موجبات المغفرة وموجبات

الجنَّة، حيث يقول تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 52]؛ ويقول تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: 90].

ويجدر الإشارة بأن دخول الجنَّة أو النَّار يكون وفقا للعمل ولا يكون الدخول برحمة الله كما يقولون، وإلا كان دخول النَّار بنقمة الله، فهم يقولون بأن دخول الجنَّة برحمة الله، لكنهم لا يقولون شيئا عن دخول النَّار وكأن مصير الناس جميعا أن يستحقوا ويستحقوا في النَّار.

لكن على هؤلاء أن يعلموا أن رحمة الله كانت بالأرض، فالرحمة كانت بوضع أسسها وتبيانها لنا بأن الحسنة بعشر أمثالها والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم، وبأن الحسنات يذهبن السيئات، وبأن من هم بسيئة فلم يفعلها كتبت له حسنة، وبتبديل السيئات حسنات بمجرد التوبة، وبمحو السيئات بمجرد الاستغفار، وبأن يجري أجر عملك الصالح عليك بعد مماتك، وبأنك معذور فيما لا طاقة لك به، وبحساب حسناتك على أفضل أعمالك (أحسن ما عملوا)...إلخ.

كل ذلك من رحمات الله، أما يوم القيامة فهو يوم الجزاء، لذلك فيجازى كل منا بعمله وفق الضوابط التي وضعها الله لنا في الحياة وبينها لنا في القرءان الكريم، لذلك فإن قولهم بأن دخول الجنَّة يكون

برحمة الله فيه تصغير لقيمة الصلاح، ومن الآيات التي يُنكرونها ضمنيا بمعتقدهم المذكور الآيات التالية:

1- ﴿... لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: 31].

2- ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: 35].

3- ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: 38].

4- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: 173].

5- ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: 39-41].

6- ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: 73-74].

7- ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: 124].

8- ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: 97].

9- ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران: 195].

10- ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يس: 54].

وهكذا يجد المسلم أن جميع الآيات علَّقت المصير على العمل، هذا إلى غير الآيات التي تذكر [فأصابهم سيئات ما كسبوا]؛ أما أهل اليمين والمتقين فقد سبق الوعد من الله بأن يغفر سيئاتهم طالما اتبعوا منهاجه، واجتنبوا الكبائر، أو تابوا عنها، واستغفروا لذنوبهم، وربت حسناتهم على سيئاتهم، فأولئك يدخلون الجنَّة، وهو منهج ثابت من قبل أن تقوم الساعة، وقبل يوم القيامة، فرحمة الله تم توزيع مخصصاتها قبل القيامة فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، لذلك عليك بالإخلاص لله وكثرة الحسنات.

وقولـه: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمـر: 9]؛ إنـما يمايز الله بتلـك الآية بين صاحب العمـل والعلم عن غـيره من الناس وغير ذلك من الآيـات كثير، فكل تلك الآيات تُعظِّم قيمة العمل الصّالح وقيمة التَّقوى، وتؤكِّد على عدم مسـاواة المحسـن بالمسيء أبدًا.

أمـا من خلطـت عليهم الأمـور وتصـوروا دخول الجنَّـة بالرحمة وشـيدوا لذلـك مرويـات قالـوا عنها (حديـث صحيح) فقـد خالفوا وأشـياعهم كتاب الله، ولنـستعرض رحمة الله بالقران لنتبين خطأ ذلك المنهج فيما يلي من قول المولى ـ عز وجل ـ حيث يقول تعالى:

1- ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۖ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الأعـراف: 49]؛ هـذه الآية وردت في أصحاب الأعراف الذين تسـاوت حسناتهم مع سيئاتهم فهم يدخلون الجنَّة برحمة الله، وهـم الفئة الوحيدة التي تدخل الجنَّة برحمة الله لتساوي الحسـنات والسـيئات. وإذا انتهينا لمعنى دخول الجنَّة بالرحمة ألا نكون تصادمنـا مـع كل الآيات السـابقات التـي تؤكد أهميـة العمل لدخول الجنَّة أو النَّار؟!.

2- ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ

﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة: 20-22]؛ فوارد بالسياق أن البُشرى بالرحمة والرضوان يكونان قبل دخول الجنَّة، وهناك فرق بين البُشرى والدخول بالرحمة، فالبُشرى بالرحمة بشّرها الله كل من آمن، وبشّرها لنا الآن حال حياتنا، ثم ننال الرضوان لحسن سلوكنا، فندخل الجنَّة، فالبُشرى بالرحمة لكل من أطاع، بما يعني تكفير الذنوب الذي سبق وأوردناه كقاعدة وضعها الله في الدنيا كي نسترشد بها كمنهج للوصول إلى الجنَّة، بما يعني أن رحمة الله تكون في الأرض لمن أطاع، وغضبه يكون منذ أن كنا أحياء بالأرض لمن كفر وعصى، وهو منهج موضوع سلفا وأعلنه الله لنا، وذلك من رحمته سبحانه وتعالى، لكن ليست هناك رحمة إضافية في الآخرة، لأن الأقلام جفت وطويت الصحف منذ كنا بالدنيا.

فعلى من يتصدى للقراءان بالتفسير والبيان ألا يُنشئ تضاربا بمفهومه الذي انتهى إليه وهو لا يعي، ولا يغتر المسلمون بأسماء الأئمة والمشايخ، فلقد ابتلينا بتقديس القديم وتسفيه الحديث، فالأصل أن تكون كما قال الله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: 18]؛ وأن تكون كما أمر رسول الله:[استفت قلبك وإن أفتوك الناس وأفتوك].

قبول الأعمال وعدم قبولها:

يعتقد كثير من الناس بأن العبد يعمل، والله قد يقبل وقد لا يقبل، لذلك فتراهم يقولون لبعضهم بعد الصلاة وفي رمضان والأعياد (اللهم تقبل)، وحينما تقول لأحدهم (رمضان كريم)، يعاجلك بالقول (بس ربنا يتقبل)، وهم يدفعون الصدقة للفقير ويتشككون في قبول الله لها، وغير ذلك كثير.

ومن بين ما قوي به منطق القبول وعدم القبول للصالحات من الأعمال، حديث عندهم منسوب للنبي - ﷺ - زورا يقول راويه:[إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله شيئا إلا أعطاه]، وهي ما يُسَمِّيه العامة (ساعة الإجابة)، فهذا المنطق يذهب إلى إمكان عدم قبول الله لعملك الصالح أو دعائك، ففي الجمعة ساعة إجابة، أما باقي الساعات (فأنت وبختك وحظك)، وهو من فساد فكرة المرء عن الله الذي سبقت رحمته غضبه، والذي يقبل كل ما كان خالصا لوجهه ولا يرده أبدا.

نعم إننا نحب أن يدعو كل منا لأخيه بتلك الدعوة الطيبة (اللهم تقبل)، لكن لا نحب أن نكون متشككين في أعمالنا، ولا أن نكون متشككين في قبول الله لأعمالنا، أو لدعائنا، وهذا الأمر هو بيت القصيد في مقامنا الماثل.

إن العبد هو أدرى الناس بما فعله، أكان يبتغي بعمله وجه الله أم شيئا آخر، ولا يجب أن نزرع الشك في أنفسنا بأنفسنا، فذلك مرض إبليسي وضعه الشيطان فينا بيد دعاة لم يدركوا حقيقة الاعتقاد، ولا حقيقة التوجه لله بالعبادة.

ولعله من البدهي أن أُنَوِّه لأولئك الدعاة ما يعلمونه من أن الله ـ جل جلاله ـ يغفر الذنوب جميعا، فكيف بمن يغفر ذنوب المذنبين المخالفين ألا يتقبل صلاة عبد يطيعه أو صيامه؟!، كيف تجرَّأ هؤلاء الدعاة بذلك القول الممجوج!، وكيف يُشككون الناس في أعمالهم وقبولها عند مليكهم، إنه إن كان الله عندهم يُعاقب المخطئين، ولا يتقبل من العابدين، فذلك ليس بإلهنا الواحد الأحد الذي لا يرد باب سائل، ويغفر الذنوب جميعا، بل هو إله الغلظة والفظاظة التي درجوا عليها.

نعم لا يتقبل الله عمل المنافقين والمرائين بعباداتهم غير الله، لكن لا يمكن تصور إنسان مسلم سليم العقل يظن في نفسه أنه قد يكون منافقا وهو غير منافق فذلك عَتَه، أو أن يتصور أنه مُراء وليس بمراء فذلك من الضلال، وفساد النفوس، وإلا فلماذا لا يظن المرء في نفسه أنه مريض، ونربأ بالعبد المسلم أن يكون كذلك أو أن يكون مريضا.

ولقد نظرت في كتاب الله فلم أجد أثرا لعدم القبول إلا بمواضع

محددة على سبيل الحصر، ولا يجوز التوسع فيها، فالله لا يقبل من الكافر ملء الأرض ذهبا ليفتدي به نفسه (91 آل عمران)، ولا يقبل شفاعة في كافر (48 البقرة)، ولا يقبل دينا غير الإسلام (85 آل عمران)، ولا يقبل الله توبة المرتد الذي ازداد كفره بعد ارتداده (90 آل عمران)، ولا يقبل يوم القيامة شيئا بدل العمل الصالح (123 البقرة)، ولا يتقبل الله من المنافقين (53 التوبة).

وقد يلوذ أحد المخالفين بقوله تعالى على لسان ابن سيدنا آدم: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27]؛ فقبول الله من المتقين لا يعني أنك لست منهم، فأنت حين تعمد إلى الصلاة، أو الصوم، أو الصدقة، أو الإخلاص في عملك وتخصصك، أو حين تعود مريضا لا تعوده إلا لله، أو غير ذلك من أعمال الصالحات، فأنت وقتها وحينها تكون من المتقين، فلا تتصور أن المتقين فئة من الناس تخصصت التقوى، وإلا لخالفوا الناموس الطبيعي الذي قال فيه رسولنا الكريم: [كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون].

وقد يتعلل آخر بأن سيدنا إبراهيم وابنه دعيا لأنفسهما بأن يتقبل الله، وذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127]؛ فقد سبق القول

بأن دعاء المسلم أن يتقبل الله عمله لا يجب أن يصل لمعني التشكيك في مدى إخلاص العمل لله، ولا في تعتيم حتمية قبول الله للعمل الصالح، إنما يعني تواضع العبد حينما يتقرب إلى الله بالعبادة متواضعا يلتمس القبول، لكن لا يعني الأمر عكس ذلك أبدا.

لذلك فإن الصيحات التي تشكك في قبول عمل العبد المسلم أو عدم قبوله لا تستند إلى فقه أو دليل، فالله سبحانه أرحم بعباده من أن يظامهم، بل لقد أخذ على نفسه أن يُنَمِّي حسناتنا، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 40]؛ يعني ذلك أن الله يتلمس الحسنات لِيُنَمِّيها، وليس كما ذهب أئمة الغلظة بأنه ـ سبحانه ـ قد لا يقبلها من الأصل.

ويقول جل شأنه وعَظُمَ مقداره بسورة الأحقاف: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف: 15-16]؛ فماذا بعد الحق إلا الضلال؟، فالله يقول بأنه يقبل الحسنات ويتجاوز عن السيئات، لكن هناك ظلالا من فكر سقيم تُشكك في القبول.

وليطمئن كل مسلم فالله الرحيم يقبل منه ذَرَّات العمل الصالح، لأنه قال بسورة الزلزلة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: 7-8]. فلا يضيع الله أجر من أحسن عملا أبدا.

ويقول تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: 30].

فكيف سترى ذَرَّة عملك الصالح حاضرة أمامك إذا لم يكن الله قد قبلها، فالله يقبل الأعمال بشهر رمضان وبغير رمضان، ويزداد قبوله بزيادة إخلاص العبد في توجهه إلى الله، ويمكن أن يزداد الأمر بشهر محدد، أو مكان مُعَيَّن، لكن شريطة الإخلاص المستمر لله، فمناط القبول الأول هو التوجه لله ورضوانه بإخلاص، فما دمت استوفيت ذلك الشرط فلا تتشكك في قبول عملك.

ودليل عقلي آخر على القبول، وهو إذا كان المسلم يؤمن بأن الله يغفر الذنوب، ويقبل التوبة عن عبادة المذنبين، فكيف لا يتقبل عملك الصالح وأنت لست مذنبا!، وهو سبحانه وتعالى القائل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى: 25].

فالإخلاص هو أساس قبول العمل، وما أرانا نصلي إلا لأننا مخلصون لله، فنادرا من يصلون ليراءوا الناس، ونحن لا نصوم إلا له سبحانه، فلا شك أنه حتما يقبل منا كل الأعمال كل يوم على مدار العمر، ويزداد ذلك بشهر رمضان، وفي الكعبة المشرفة، وفي جوف الليل، وفي يوم الجمعة، ويوم عرفة...وهكذا.

ولنتدبر قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: 5]؛ فكل المطلوب للنجاة بالآخرة هو إخلاص الحياة لله.

وعلينا أن نتدبر قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ [المائدة: 9]؛ فالوعد بالمغفرة بالآخرة قائم منذ الدنيا، وهو الأمر الذي يعني أنه ليس هناك مؤمن لا يخطئ، فهناك دوما رب رحيم منذ كنا بالدنيا لكننا لم نقدره حق قدره.

وبذات المقياس السابق يكون ميزانك يوم القيامة، ويكون حسابك، فهل بعد ذلك تظن أنك من أهل النَّار؟، أرى بأن من يتصورون النَّار والعذاب والويل والثبور إما إنهم مرضى نفسيون بالمعصية، أو مرضى بالغلو والتشدد، فكلا الفريقين عليهم مراجعة عيادات الطب النفسي، ومراجعة سوء عقائدهم وظنهم بالرحمن الرحيم.

خاتمة

وبعد: فقد كانت تلك نبذة من بيان الآخرة وأحداثها نهتدي بأنوارها بهدي القرءان، وما وافقه من السُّنة النبوية، فنحن نأخذ به حتما، لأن نبينا ﷺ [كان خُلُقُهُ القرءان]، وأما ما تصادم وما كان من أشكال دار الخيالة فهو أمر لا نعتد به، وإن لوَّح مناصروه بأنه وحي وبأنه ما ينطق عن الهوى، فالهوى في أصله وحقيقته لديهم ـ بينما لا يدركون هم تلك الحقيقة ـ أنهم يُحبون رواية الحديث مهما خالفت كتاب الله.

وهم يُرطِّبون بتلك العلوم والروايات المدسوسة على صدور السُّذَج والدهماء والعامة الذين لا يُدركون من أمر دينهم إلا ما يُلقيه إليهم أولئك المبتدعة باسم الإسلام من نفايات قولية لم يقُل بها رسول الله أبدًا، ليظل هذا الفريق من دعاة وخطباء الفتنة علماء في نظر العامة، بينما هم يبثون فيهم الجحود بآيات كتاب الله، بل وإشراك رسول الله مع الله في الحكم بينما ينادون بأعلى عقيرتهم بأنهم الموحدون.

وتراهم يخالفون تعاليم كتاب الله في واقع عملهم وخطابهم لذلك ابتدع أساطينهم ما ابتدعوه ويستسيغونه بقولهم: [أن السُّنة النبوية قاضية على القرءان وقاضية فيه]، ويقولون بأنها تنسخ القرءان، لذلك لا تعجب حين يتلوُّون ويتلونون وهم يقولون بقتل المرتد، ورجم الزناة، وقتل تاركي الصلاة، وقسَّموا القتل فقالوا بمن تركها كفرا بها فإنه يُقتل كفرا، ومن تركها تشاغلا أو استهانة يُقتل بعد استتابته ثلاثة أيام حدًا لا كفرا، وسموا أصحاب هذا الفقه أئمة، نعم هم أئمة لكنهم يخطئون وليسوا بمعصومين، ولا يجب أن نقدس كل ما جاء من آثارهم.

لذلك فلابد لهم أن يعيدوا تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: 46]؛ باعتبار أن الساعة من أيام وأحداث الدنيا، فيكون ما قبلها من أحداث الدنيا، لا من أحداث القبر كما تخيل الأقدمون واختال المحدثون بذلك المفهوم، وأرى وجوب إعادة النظر في كل تفسيرات مست يوم القيامة أو الساعة لتندرج تحت ظل ما سردناه بتلك الدراسة الماثلة.

ولا أتعجب إن رأيتك تعيد النظر لتتدبر معنى قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: 1]؛

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: 18]؛ وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: 38]؛ وآيات تَبَرُّؤ الأتباع من بعضهم البعض يوم القيامة.

والخوف كل الخوف على من صاحب الشياطين في الدنيا أن تنتهي به إلى الكفر، حيث يقول تعالى بسورة المؤمنون: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: 96-98]؛ بما يعني التعوذ من أن تحضرك الشياطين حال الاحتضار، فهي تكون أعظم حالات المرء جللا وضعفا وهو ما زال على قيد الحياة يُسلم الحياة ويقبل على أُخراه، فتحاول الشياطين أن تفتنه الفتنة الأخيرة ليكفر بالله، لذلك لا بد أن تغنم الخير وأصدقاء الخير في حياتك فهي فرصتك للتزود لرحلة الآخرة.